

لماذا مالك بن نبي اليوم؟

Why Malek Bennabi is Important Today?

بدران بن لحسن¹، إبراهيم محمد زين²، فتحي أحمد³

¹ مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قطر bbenlahcene@qu.edu.qa

² كلية الدراسات الإسلامية، جامعة حمد بن خليفة، قطر lzain@hbku.edu.qa

³ كلية الدراسات الإسلامية، جامعة حمد بن خليفة، قطر fethibja@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/04/25 تاريخ القبول: 2021/05/10 تاريخ النشر: 2021/06/06

الملخص:

بعد مرور ما يناهز النصف قرن عن رحيله، مازال مالك بن نبي وأفكاره وكتاباته وأطروحاته تحظى باهتمام العلماء والمفكرين ومراكز البحوث والمؤسسات العلمية فيعقدون الحوارات والندوات والمؤتمرات لمناقشة مفاهيمه ومنظوره في تناول القضايا المعاصرة وأدواته التحليلية ومصادره ومشاريعه التغييرية، فضلا عن البحث في مدى أهمية فكره لواقعنا المعاصر. ولهذا تتجه هذه الورقة إلى محاولة الإجابة عن سؤال: لماذا مالك بن نبي اليوم؟

وللإجابة عن السؤال "لماذا مالك بن نبي اليوم؟"، يتجه البحث إلى مناقشة طبيعة الاهتمام بفكر بن نبي ومنظوره الفكري والقضايا الكبرى التي عالجها، وما الذي جعله "ابن خلدون الثاني". فضلا عن مناقشة سؤال الحضارة وفكرة التوظيف التكاملي، ثم تحليل مشكلة التخلف في العالم الإسلامي والعلاقة مع الغرب ومن ثم الخلل إلى شرح رؤية بن نبي لقضية التغيير الاجتماعي. والهدف أن تؤدي هذه الرؤية التي نقدمها إلى الإجابة عن السؤال المطروح والدفع بالنقاش العلمي والحوار خطوات إلى الأمام لإثراء التنظير والممارسة لتوفير شروط النهوض الحضاري.

الكلمات المفتاحية: بن نبي؛ المنظور الحضاري؛ المسألة الحضارية؛ الفكر؛ المنهج.

Abstract:

After nearly half a century has passed since Malek Bennabi passed away, his ideas, writings and theses are still receiving the attention of scholars, thinkers, research centers and the academia, and they hold dialogues, seminars and conferences to discuss his concepts and perspectives on understanding and dealing with contemporary issues. His approach and thought importance are still attracting researchers and scholars. For this reason, this paper attempts to answer the question: Why Malek Bennabi is important today?

To answer the mentioned question, this study tends to discuss the nature of Bennabi's thought, perspective, major issues he dealt with, and what made him "the second Ibn Khaldun" of Islamic thought. It discusses also the question of civilization, the idea of the integrative use of sciences, the analysis of the problem of backwardness in the Muslim world, the relationship with the West, and then concluding with an analysis of Bennabi's vision of the issue of social change. It is our objective that these insights that we present will lead to the answer of the question proposed and to push the scientific discussion and dialogue on such topics as steps forward to enrich the theory and practice towards providing the conditions for civilized revival.

Keyword: Bennabi; the civilizational perspective; civilization issue; thought; methodology.

مقدمة:

ولد المفكر الكبير مالك بن نبي في الفاتح من يناير سنة 1905م بمدينة قسنطينة في الجزائر وتوفي (رحمه الله) عشية الأول من نوفمبر سنة 1973م. لقد عاش حاملا هم ومشكلات المجتمعات المسلمة من طنجة إلى جاكرتا، واعتنى بتحليل الحالة التي أصابت هذه الشعوب وجعلتها تحت وطأة 'الاستعمار' ولخصها في مفهوم "القابلية للاستعمار" الذي يتضمن مجموع الاستعدادات النفسية التي لازمت هذه المجتمعات بعد عصر الموحدين. آمن مالك بن نبي بالتغيير

الذي لا يتحقق إلا بتوفر مجموعة من الشروط تدخل تحت عاملين أساسيين وهما إمكانية وإرادة التغيير.

وبعد مرور ما يناهز النصف قرن عن رحيله، مازال مالك بن نبي وأفكاره وكتاباته وأطروحاته تحظى باهتمام العلماء والمفكرين ومراكز البحوث والمؤسسات العلمية فيعقدون الحوارات والندوات والمؤتمرات لمناقشة مفاهيمه ومنظوره في فهم وتناول القضايا المعاصرة وأدواته التحليلية ومصادره ومشاريعه التغييرية، فضلا عن البحث في مدى أهمية فكره لواقعنا المعاصر تشخيصا ومعالجة. ولهذا تتجه هذه الورقة إلى محاولة الإجابة عن سؤال: لماذا مالك بن نبي اليوم؟

إن قيمة السؤال المطروح تكمن في تنوع طرق الإجابة عنه ذلك لأن مستويات فهم السؤال تختلف من شخص لآخر بل إنها مرتبطة بأفق ومحتوى السؤال إذ أنه لا يخفى على الناظر الحصيف أن هذا التمشي المنهجي يقتضي التوفر على حظٍّ من فهم الأفق الفكري الذي تحرك فيه مالك بن نبي لإنجاز أعماله الفكرية حتى تكون مشروعا ثقافيا متكامل المعالم ومن ثم ربط ذلك الفهم بقضايا وهموم لها صلة تاريخية ومعرفية بالنص الأصلي الذي أنتجه مالك بن نبي. هذا النوع من المحاورة وربما المساءلة يقتضي عدة علمية لفهم النص الأصلي ثم تحويله إلى نسق علمي وتاريخي جديد لا يخفى الصلة العلمية بينهما والحاجة النفسية لهذا الوصل التاريخي الذي يتجاوز المكان والزمان ويجعل تلك المحاورة ممكنة فحسب بل مفيدة في فهم وتطوير النص الأصلي. لقد انعقدت محاورات جد مفيدة وطريقة لعل من أكثرها دلالة على ما نحن فيه من أمر هي تلك المحاورات الشعرية والمساءلات الفلسفية العميقة التي عقدها العلامة إقبال مع مولانا جلال الدين الرومي والتي تبين لنا كيف يمكن أن ينعقد مثل هذا الوصل التاريخي العلمي والروحي حتى يتحقق الغرض من هذا الوصل.

وللإجابة عن السؤال "لماذا مالك بن نبي اليوم؟"، يتجه البحث إلى مناقشة بعض القضايا المهمة والمتداخلة كما في الفقرات الموالية ونذكر من أبرزها طبيعة الاهتمام بفكر مالك بن نبي ومنظوره الفكري والقضايا الكبرى التي عالجها، وما الذي جعله "ابن خلدون الثاني". فضلا عن مناقشة سؤال الحضارة وفكرة التوظيف التكاملية للعلوم الاجتماعية في معالجة قضاياها، ثم تحليل

مشكلة التخلف في العالم الإسلامي والعلاقة مع الغرب ومن ثم الخلل إلى شرح رؤية مالك بن نبي لقضية التغيير الاجتماعي. ويحدونا الأمل في أن تؤدي هذه الرؤية التي نقدمها إلى الإجابة عن السؤال المطروح والدفع بالنقاش العلمي والحوار حول هكذا موضوعات خطوات إلى الأمام لإثراء التنظير والممارسة لتوفير شروط النهوض الحضاري.

1. الاهتمام بفكر مالك بن نبي

إن المراقب للساحة الفكرية في العالم الإسلامي يلاحظ بسهولة أن مالك بن نبي وفكره، وفكر شخصيات فكرية أخرى لم تحظ بالاهتمام الكافي لا في وطنها الجزائر ولا في العالم الإسلامي بشكل عام، كما يلاحظ أن هناك تفريط في الكفاءات البشرية والعقول المبدعة بغض النظر إن كان هذا التفريط متعمدا أم عن جهل. والناظر في الساحة الفكرية يمكن أن يخلص إلى أن عدم الاهتمام الكافي بفكر مالك بن نبي والتفريط في فكره وفي الكفاءات البشرية الأخرى يعود إلى ثلاثة أسباب وهي:

أولاً: هيمنة ثقافة الجمود والتخلف والتقليد وحب المظاهر والانشغال بالخطابات الرنانة والتركيز على ثقافة الحقوق لا الواجبات، وهذا ما منع انتشار فكر مالك بن نبي، لأن فكره يقوم على النقد والتشخيص الدقيق والشامل لأمراضنا الفكرية والثقافية، وينزع إلى التفكير السني والإبداع، والعمل على إيجاد حلول نظرية وعملية للمشكلات والأمراض الفكرية والحضارية بدلا من الاكتفاء بتمجيد الماضي أو الانبهار بالوافد، وهذا جعل ما طرحه من أفكار جديدا ومتقدما على ما هو معهود لدى التيارات السائدة.

ثانياً: على المستوى القطري، وخاصة في العالم العربي، هناك تيار في المجتمع وفي دواليب السلطة لا يريد لمثل فكر مالك بن نبي أن ينتشر كما يعمل هذا التيار أيضا على سيادة فكر التبرير والبكاء على الماضي ونشر التسطيح الفكري، كي لا يتمكن الأحرار من امتلاك رؤية واضحة عن وضعهم البائس والعمل على صياغة مشروع نهضة نابع من أصالتهم ومتوجه إلى الإجابة عن الأسئلة الحقيقية التي تواجههم.

ثالثاً: إننا نفتقد إلى برنامج ثقافي وطني يهتم بالتأسيس للوعي الوطني الجامع الذي يسترجع قيمنا الفكرية ويشكل بها وعياً وطنياً متمركزاً حول هويتنا وذاتنا ومنطلقاً تجاه العالم دون عقدة نقص أو دونية أو قابلية للاستعمار، وذلك بحكم أن من يتولى وزارات التعليم والثقافة هم أشخاص إما يحكمهم نظر جزئي للواقع، أو أنهم معادون للأمة وهويتها ومركزيتها الحضارية ويظهر ذلك جلياً من خلال نشر ثقافة الرقص في المحافل وإلهاء الناس بمهرجانات الرقص والغناء وتشويه فطرة المجتمع وتقاليده وعاداته.

2. الفكر الإسلامي المعاصر ومالك بن نبي

هناك سؤال جوهري وخطير يطرح هنا وهو: هل استفاد الفكر الإسلامي المعاصر من أفكار وأطروحات مالك بن نبي أم تجاهله؟ يظهر أن هناك تراكماً في الوعي بسبب انتشار أفكار مالك بن نبي وخاصة في أوساط الشباب، ولكن على المستوى المؤسسات تكاد لا توجد استفادة بعدُ من فكره، وذلك لعوامل متعددة نذكر منها:

أولاً: إن أفكار مالك بن نبي ليست أفكاراً عاطفية تقوم على تعبئة الجماهير ودفعهم للمطالبة بالحقوق، وإنما هي أفكار توخز الضمير، وتوقظ الوعي، وتربي الفكر على المنطق والسنن، وتدعو إلى البداية بالواجبات لا الحقوق وفقاً لمقولة بن نبي أن دخول التاريخ يكون من باب الواجب لا الحق. وهذا مرهق للأنفس التي تعودت الدعة والخمول واللوم والعمل العشوائي والاعتلاء على ظهر الجماهير بتنويمها بالعاطفة.

ثانياً: أن المؤسسات في العالم العربي يهيمن عليها العلمانيون؛ والعلمانية كما نعرف موقف ضدي لكل أصالة ولكل إبداع ولكل قيمة؛ ولذلك فإنهم لم يسمحوا لأفكار بن نبي أن تنتشر، وأن تبني عليها المؤسسات؛ لأن ذلك سيؤدي إلى تقويض المنظور التكنديسي الذي يقوم عليه بنياهم، كما أنه يؤدي إلى تفكيك المنظور الحداثي التقليدي الذي يعادي الاستقلالية والانتماء للأمة؛ فالحداثيون ينطلقون من اللحظة الحداثية ويجعلونها لحظة سرمدية، لا لحظة قبلها (أي التراث) ولا لحظة بعدها (أي طريق ثالث)؛ وهذا في الحقيقة اغتراب كبير تعيشه النخبة العلمانية

بوعي أو بدون وعي منها. كما أنهم يستبعدون فكر مالك بن نبي بأحكام عامة قبلية دون قراءته قراءة نقدية فاحصة غير متحيزة.

ثالثاً: أن الحركات الإسلامية في عمومها حركات نضالية، وجماعات حزبية لها مرجعيتها وخصوصيتها ومنهجها في التغيير؛ في حين أن فكر مالك بن نبي فكر منفتح، ليس لجماعة أو شعب أو دولة، وإنما فكر يمكن أن يتبناه كائناً من كان، هدفه صياغة منظور أكثر علمية وأكثر شمولية لتشخيص أمراض الأمة ووصف حلول لها؛ حلول تتطلب تكاتف رجل الفكر، وصانع القرار، ورجل المال، ورجل الأعمال؛ أي أن تندرج في عملية النهضة كل القوى الحية في المجتمع، وفق منظور أرحب لا يقصي أحداً أيديولوجياً ولا وظيفياً؛ لأن الأمة تحتاج إلى كافة أبنائها وكل طاقاتها.

3. مالك بن نبي هو "ابن خلدون الثاني"

يعتبر مالك بن نبي هو "ابن خلدون الثاني" بامتياز وليس المقصود أنه كان مقلداً لابن خلدون، ولكن المقصود هو أنه أحيا المدرسة الخلدونية؛ رؤية ومنظوراً وموضوعاً ومنهجاً؛ رؤية تهتم بال عمران البشري في ضوء القرآن فتستكشف سنن قيامه وسقوطه، ومنظوراً يحاول أن يعالج القضايا في أفقها الحضاري العالمي، وموضوعاً وهو حركة المجتمع في التاريخ، ومكونات المجتمع، والعلاقات الاجتماعية، والصلة بين الدين والقيم والإنسان وكيفية تركيب ذلك في فعل إنجازي تاريخي مستحضراً سنن الله في ذلك، ومنهجاً من خلال تعميق النظر التحليلي التركيبي، والعمل على استخراج واكتشاف سنن الله في حركة التاريخ والاجتماع، ليحول الفعل الحضاري إلى فعل واع قصدي منظم مخطط له، وليس فعلاً عشوائياً؛ فهو منهج التفكير السنني.

وبالرغم من أن سقف المعرفة في زمن ابن خلدون كان عائلاً أمام عمق الفكرة الخلدونية كما يقول مالك بن نبي؛ فعلى سبيل المثال فإن تبنى ابن خلدون لمصطلح "الدولة" حجب عمق فكرته في تناول مجالها الأوسع، وهو الحضارة.

لقد تأثر مالك بن نبي بابن خلدون في تركيزه على دراسة المجتمع الانساني والعمران البشري، والبحث في السنن التي تحكم حركة التبدل والتغير والتداول في التاريخ. ولهذا يرى بن نبي أن ابن خلدون اكتشف قانون حركة التاريخ والدورة التاريخية من خلال دراسته للمجتمعات في زمانه، وتوصل إلى رصد المراحل المتعاقبة التي يمر بها العمران البشري والاجتماع الانساني، وأعمار الدول، وصاغها في أدوات تحليل اجتماعي مهمة جدا، ومن ذلك مفهوم العمران البدوي والعمران الحضري، ومراحل الغلبة والتمكين والتحضر والتفكك، وحدد خصائص كل مرحلة نفسيا وفكريا واجتماعيا. يقول ابن خلدون: "وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة على ما مرّ، ولا تعدو الدول في الغالب هذا العمر بتقريب قبله أو بعده، إلا أن عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب، فيكون الهرم حاصلاً مستولياً..."¹.

وهكذا كان ابن خلدون رائدا في هذا الاكتشاف العلمي في دراسة التاريخ وحركة المجتمعات وتحليل خصائص مراحل المجتمع في كل مرحلة، غير أن مالك بن نبي يرى أن ابن خلدون لم تسعفه معرفة عصره في أن يرتفع بالقانون من مستوى منتج حضاري (الدولة) ودراسة حركتها نشوءاً وصعوداً ونزولاً، إلى الحضارة ذاتها. ولهذا أكد مالك بن نبي أن "مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها"².

ولعلنا، نرى في هذا السياق أن مالك بن نبي، بالرغم من تبنيه للمنظور الخلدوني والارث الخلدوني، المنصب على دراسة الشروط الموضوعية والسنن التاريخية لحركة التبدل في العمران البشري، فإنه ارتفع بالتراث الخلدوني من دراسة (الدولة) باعتباره وحدة التحليل، إلى دراسة (الحضارة) باعتبارها وحدة التحليل. وهكذا انتقل بالمنظور الخلدوني إلى أفق كلي عالمي؛ أي إلى مستوى الأحداث الإنسانية، لاكتشاف السنن والشروط التي تولد فيها الحضارات وتتحكم في سيرها وصيرورتها.

وبقدر أنه من المفيد الفهم أن علم العمران كان مقدمة منطقية لعلم مشكلات الحضارة الذي ابتكره مالك بن نبي، وذلك يجعلنا نمنع النظر في أمرين هما سؤال العلم وسؤال الانسان عند كل

من ابن خلدون ومالك بن نبي، وهل لهما السؤالين أبعاد مختلفة وزوايا جديدة للنظر عند مالك بن نبي لم تكن متاحة لابن خلدون من قبل؟

يبدو أن الإجابة المباشرة تثبت أن مالك بن نبي امتلك أبعاد مختلفة وأدوات جديدة للنظر لم تكن متاحة لابن خلدون، ربما بسبب التراكم العلمي وتطور مفردات ومصطلحات المعارف. ولكن لو صوبنا النظر تجاه الرؤية الكلية نجدها ذات الرؤية الكلية التي صدر عنها كلاهما. فابن خلدون ابتكر علم العمران لأنه رأى أن التراكم العلمي في كتابة التاريخ قد احتوى على الغث والسمين، وذهلت هذه الصناعة المهمة في تعريف الإنسان بنفسه وسنن اجتماعه البشري عن أداء ذلك المعنى المهم لحياة الإنسان، ومن ثم إجادته التعاطي مع أقدار الله في الأنفس والآفاق، وحاول ابن خلدون من خلال ابتكاره لعلم العمران أن يعيد لعلم التاريخ تلك المكانة المهمة من خلال تصنيفه للعلوم والتأريخ لها، وحاول فتح الباب لتطوير علوم جديدة تتسق مع نظام علم العمران، وهذه العلوم الجديدة لا بد أنها ستخرج من رحم العلوم والصناعات التي كانت في عصره، مثل علوم الملة وعلوم الأوائل ومحاولة الربط والتكامل بينها لبناء علوم جديدة. وعليه، فإن سؤال العلم مرتبط ارتباطاً وثيقاً بسؤال الإنسان الذي تغيرت أحواله وفق سنن أجداد معرفتها وتوخي لإنجاز معارف وعلوم جديدة تلائم هذا التغيير السني الجديد.

كذا الحال بالنسبة لمالك بن نبي، فهو قد فطن إلى أن العلوم الجديدة التي ستنشئها مشكلات الحضارة هي الإنسان وقد تحرر من القابلية للاستعمار وهو لا شك لن يوقع غيره في قابلية جديدة للاستعمار حينما تكون له الريادة، وإنما يتعاطى مع الحضارة الإنسانية من موقع العارف بسنن وأقدار الله في الأنفس والآفاق. فسؤال الإنسان والعلم عنده يعيد إلى اذهاننا ما قام به ابن خلدون من قبل، لكن تحت سقف معرفي أرحب من ذلك الذي وقع لابن خلدون وتعامل معه بذات الرؤية الكلية.

نخلص من كل ذلك إلى أن سؤال "لماذا مالك بن نبي اليوم؟" يدعونا للتأمل في سؤال ماذا بقي من مالك بن نبي؟ وكل ذلك يجزنا إلى مساءلة مالك بن نبي بعموم واقعنا الذي استشرفه ومهد لنا السبيل في سبر أغوار سؤالي العلم والإنسان. والعلم في إطار مشكلات الحضارة التي يصنعها ذلك

الانسان الذي تحرر من قابليته للاستعمار، ولا يسعى في تحقيق حضارة إنسانية تحيل الآخر إلى القابلية للاستعمار أو الاستلاب.

4. المنظور الفكري والقضايا الكبرى في فكر مالك بن نبي

من خلال قراءة كتب مالك بن نبي، والتعامل مع فكره، والبحث في أفكاره، يجد الباحث أنه يقدم أطروحة ومشروعاً لتشخيص أزمة التخلف الحضاري في العالم الإسلامي، ويقدم منظوراً أكثر اقتداراً على معالجة الأزمة واقتراح حلول للنهضة والبعث الحضاري للوطن ولالأمة. ومثلما تقدم فإن مالك بن نبي هو ابن خلدون الثاني، ونخاف أن يحدث له مثلما حدث لابن خلدون، في أن أمتنا لم تستفد منه في زمانه؛ من حيث منظوره، ومنهجه، ومفاهيمه، والحلول التي اقترحها.

إن مالك بن نبي هو مؤسس المنظور الحضاري للنهضة في العالم الإسلامي، وأعطى أولوية كبيرة للإنسان ولإعادة صياغة الثقافة التي تمثل المحيط الذي يتشكل فيه وعي الإنسان، وصاغ نظريته في الحضارة معتبراً الحقيقة الدينية الوسط الذي يتشكل فيه البعث الحضاري الإسلامي الجديد، لأن الدين يوفر الوسط الذي تتفاعل فيه مكونات الحقيقة الاجتماعية (الإنسان والإمكان الطبيعي والزمن ببعده الاجتماعي). وفضلاً عن هذا لم يكن مالك بن نبي مفكراً أيديولوجياً، ولا كاتباً مغرماً بالتنظير، ولا داعية مهتما بتجميع الناس حول فكره، ولا سياسياً يطالب بالحقوق، ولكنه كان عالماً ومفكراً وصاحب دعوة وفيلسوف واسع النظر ومهندس أفكار نادر الوجود، انشغل نظرياً وعملياً بتشخيص أمراض الأمة المتوارثة والمستوردة، واقتراح حلول نظرية وعملية جديدة غير مسبقة. وهكذا فإنه كان صاحب مشروع تجديد حضاري لم يتم استغلاله بعد، وهو المفكر الذي تحتاجه الأمة، ويحتاجه وطننا، إذا أردنا أن نخرج من حالة التكديس والغثائية والفوضى والمعالجات الجزئية والسياسوية لوضعنا.

من المعلوم أنه كلما ذكر مالك بن نبي يُذكر المنظور الحضاري في الفكر الإسلامي، ويذكر ابن خلدون الذي أحيا بن نبي فكره، كما تذكر مقولات الحضارة، والثقافة، والإنسان، والدين، والتنمية والتخلف والنهضة. وتذكر أيضاً القابلية للاستعمار باعتبارها أداة لفهم وتحليل التبعية، وتذكر

معادلة الحضارة (الإنسان + التراب + الوقت) والدين باعتباره وسط تفاعل عناصر الحضارة، وتذكر مراحل الحضارة (مرحلة الروح، ومرحلة العقل، ومرحلة الغريزة)، وتذكر أعمار المجتمع (مجتمع ما قبل الحضارة، ومجتمع الحضارة، ومجتمع ما بعد الحضارة)، وتذكر شبكة العلاقات الاجتماعية، وتذكر كذلك "مشكلة الأفكار"، ويحضر القرآن بقوة باعتباره رسالة لتحرير وتحضر الإنسان، ويذكر النبي ﷺ باعتباره النموذج العملي لتحقيق قيم القرآن في التاريخ.

وبعبارة أخرى، فإن مالك بن نبي يعد مدرسة في الفكر الإسلامي المعاصر، لم ينصب اهتمامه على تفسير النص، ولكن اتجه إلى دراسة سنن التخلف والتحضر، ليرسم لأُمته طريقاً لاستعادة دورها ورسالتها في التحضر والشهادة والريادة. فهو صاحب منظور ومنظومة فكرية متميزة لا يمكن نسبتها إلى أحد آخر، بالرغم من استفادته من تراث المسلمين وغيرهم في بناء نسقه الفكري ومنظوره الحضاري.

5. التوظيف التكاملي للعلوم الاجتماعية في منظور مالك بن نبي

لقد استطاع مالك بن نبي أن يستثمر العلوم الاجتماعية الإنسانية المعاصرة في بناء منظوره الحضاري، وهو "المنظور التكاملي". وقد أفادته توجيهات العلامة عبد الحميد بن باديس (رحمه الله)، الذي كان في نظر مالك بن نبي يمثل العالم الذي ينظر في أسباب المشكلة ولا يعمل على تنويم المسلمين بالتمائم والأقوال الكهنوتية، ولعل هذا ما أعطى لبن نبي رؤية أوسع لضرورة النظر في مختلف العلوم لبناء ثقافة إسلامية تخرج من التقليد كما تخرج من التبعية والانبهار بالغرب. وقد ساعده وجوده في فرنسا في اكتشاف سر فعالية الحضارة الغربية في استعمالها وتطويرها لتلك العلوم الاجتماعية والإنسانية في التحقق بسنن الله في الأنفس والمجتمعات والتاريخ. كما ساعده مُلهمه ومعلمه الأكبر الأستاذ "حمودة بن الساعي"³ الذي كان يكبره سنًا، وكان يحضر رسالة دكتوراه عن أبي حامد الغزالي في السوربون آنذاك، وكان ضليعًا في الفكر الإسلامي والعلوم الاجتماعية. ولهذا كان بن نبي يُرجع اهتمامه بالعلوم الاجتماعية والإنسانية وبالتفكير في مشكلات الحضارة إلى أستاذه ومُلهمه "حمودة بن الساعي" الذي - حسب رأيه - جعله خبيرًا في شؤون المجتمعات الإسلامية، بدلا من أن يبقى حبيس تخصصه في الهندسة الكهربائية. وقد فتحت تلك النقاشات

بينه وبين حمودة بن الساعي وعيه بضرورة السعي إلى بناء منظور يستوعب حاجة أمتنا إلى منظور فكري يعالج المشكلات الكثيرة التي تعانيها، في وحدة كلية تجمعها ولا تحتزلها؛ وهو المنظور الحضاري.

وعند دراسة مالك بن نبي للحضارة كان مدركاً أنها ظاهرة متعددة الأبعاد، تتطلب العديد من التخصصات والعلوم لتحليلها باعتبارها ظاهرة اجتماعية وثقافية وتاريخية. ولهذا السبب، حاول دراستها من زوايا مختلفة، مستخدماً العلوم المختلفة، وأخذاً بعين الاعتبار أهمية إتباع التوظيف التكاملي للعلوم لدراساتها. ويرى بن نبي أن الحضارة ظاهرة إنسانية وليست مادية، فإنه عند دراستها ودراسة حركتها التاريخية، ينبغي أن يكون المرء مدركاً لتعقيد الظواهر الاجتماعية⁴ حيث إن التعامل مع الظاهرة الاجتماعية أكثر تعقيداً من التعامل مع الظواهر الرياضية أو الطبيعية وذلك لوجود اختلاف واضح في طبيعة تلك الظواهر ونطاقها. وبالتالي، فإن تناول الحضارة كظاهرة اجتماعية يتطلب فهماً صحيحاً لطبيعتها ونطاقها⁵.

ولهذا رأى مالك بن نبي أن دراسة الحضارة والمشكلة الحضارية لأمتنا لا ينبغي أن نعول فيها على ما يقدمه مؤرخو الحضارة الذين تهتم أعمالهم بجمع الأحداث التاريخية وتفسيرها، بل لا بد من استحضار أهمية التحليل النفسي والاجتماعي الذي يُقدمه علم النفس والعلوم الاجتماعية⁶. وهذا ما يجعل دراسة الحضارة تتطلب تحقيق التكامل بين القواعد العامة المستمدة من العلوم الاجتماعية وخاصة علم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس⁷.

لقد بنى مالك بن نبي منهجه على الجمع بين الأدوات التي قدمتها العلوم الاجتماعية المذكورة آنفاً وحاول دمج أدواتها التحليلية في نظام واحد حتى يتسنى له تطبيق هذا المنهج على دراسة الحضارة بمعناها الشامل بما في ذلك وجهات نظر فلاسفة التاريخ والمؤرخين وعلماء النفس وعلماء الاجتماع⁸. وبالإضافة إلى ذلك، يرى بن نبي أنه لا ينبغي التركيز على البيانات والحقائق التي قدمتها العلوم الاجتماعية والإنسانية فحسب، بل يجب استخدام الحقائق التي يقدمها الدين بهذا الخصوص. ولذا يرى أنه لا يمكن تفسير حركة الحضارة وفهمها بطريقة عميقة وشاملة ما لم تكن

تشير إلى المصادر الإلهية للمعرفة. وهكذا أصبح دور الدين بالغ الأهمية في منهجه في دراسة الحضارة وتحقيق النهضة⁹.

6. سؤال الحضارة في فكر مالك بن نبي

لقد كانت جهود مالك بن نبي وأعماله الفكرية منصبة على البحث عن حل لمشكلة الحضارة في العالم الإسلامي، ومحاولة البحث عن مدخل منهجي مناسب لإعادة بناء حضارته من جديد. وهو ما أكدّه صراحة بقوله: "أعتقد أن المشكلة التي استقطبت تفكيري واهتمامي منذ أكثر من ربع قرن وحتى الآن، هي مشكلة الحضارة، وكيفية إيجاد الحلول الواقعية لها وإزالة التناقض بين النجاح المادي والتخلف المعنوي، أعني تخلف القيم وإهمالها"¹⁰.

ولهذا يمكن القول أنه حينما كتب مالك بن نبي أول مؤلفاته العلمية حول الظاهرة القرآنية لم يعد المغرب العربي متصلاً بمشرقه بل كان في الأفق مشروعا حضاريا جديدا يعيد تعريف ذلك المجال الجغرافي ضمن حوض البحر الأبيض المتوسط ضمن مشروع حضاري استعماري أوروبي و لم تعد اللغة العربية هي الوعاء الحضاري الذي يشكل وعي الكيان الاستعماري الجديد بل صار أمر إحلال لغة جديدة مكانها هو فاتحة انجاز هذا المشروع الاستعماري ولم يبق لمن أراد مقاومة هذا الفعل الحضاري التوسعي الاستصالي إلا أن يتقن هذه اللغة الجديدة و يعي معالم ذلك المشروع الاستعماري من داخله. فطالما أننا قد فقدنا دور الريادة الحضارية واستهلكت طاقتنا في إطار إخفاقات إنسان ما بعد الموحدين بل لبستنا حالة القابلية للاستعمار فلا بد لنا من انجاز وعي جديد يبشر بالخروج من ذلك وفق مقتضيات الفعل الحضاري الناجز.

فلئن كتب مالك بن نبي أول أعماله باللغة الفرنسية ففي ذلك مغزى عميق الدلالة ولا يمتري أحد في أن القول بالإعجاز اللغوي للقرآن الكريم في ظل هذا المشروع الحضاري الاستعماري يبدو من لغو الكلام الذي يرتد على صاحبه بالخسران المبين، ولذلك نظر مالك بن نبي في كيفية إيجاد طرائق جديدة في بيان معنى جديد للإعجاز ينفذ بعمق في الظاهرة الدينية في مستواها الكوني وتشكلها التاريخي في التراث الديني الذي تستند عليه الحضارة الغربية ومن ثم مشروعها الاستعماري

الجديد الذي يتغيأ إعادة صياغة حوض البحر الأبيض المتوسط وفقاً لرؤيته. ولا ينكر أحد أن عصر التنوير الأوربي قد أنشأ منهجاً جديداً للنظر إلى المعرفة الإنسانية في كلياتها وصار من نافلة القول أن النظر إلى الظاهرة الدينية يقتضي تحريرها من أفق النظر اللاهوتي الضيق إلى أفق دراسة الظاهرة الدينية في كلياتها والتخلي عن مبدأ أن المسيحية هي أقصى ما وصل إليه الوعي الديني من كمال ورقي. هذا الكسب المنهجي الجديد أتاح لمالك بن نبي أن يستعمل هذه المنهجية العلمية لدراسة الظاهرة القرآنية وفق محددات منهجية جديدة ترتفع بالنقاش إلى مستوى علمي جديد يدفع بمعنى أعجاز القرآن إلى فضاء يتجاوز اللغة إلى التاريخ الديني المقارن ليثبت به صحة دعوى القرآن أنه لم يصدر عن ذات النبي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وإنما صدر عن ذات عليّة وذلك بالنظر في ظاهرة النبوة في التاريخ الديني لبني إسرائيل ثم النظر في المحتوى المعرفي للقرآن الكريم ومقارنة ذلك بالتاريخ الديني للعرب في جاهليتهم. وبهذا البناء العلمي المعقد لفهم الظاهرة القرآنية يخلص مالك بن نبي لإثبات ظاهرة النبوة وبيان إعجاز علمي تاريخي للقرآن عن طريق مقارنته العميقة لنص سورة يوسف عليه السلام بين القرآن والتوراة. هذا القول العلمي الجديد في شأن إعجاز القرآن الكريم كان فاتحة لنظر رائد في مجال ربط الظاهرة الدينية بسؤال الحضارة الذي تكون فيه الفكرة الدينية عاملاً حاسماً في بناء معادلة الإنسان والتراب والوقت¹¹.

لا يُشك أن مالك بن نبي حين كتب مؤلفه الرائد في مجال الدراسات الحضارية كان قد تأمل في واقع الدول التي تنتمي للمجال الحضاري الإسلامي ورأى أنها رغم خروج المستعمر من غالبها الأكثرية إلا أنها لم تحقق النهضة المطلوبة بل لم يدخل إنسانها بعد في دورة حضارية جديدة ولم يسهم حتى في رد القداسة للحضارة الإنسانية السائدة بتحيزاتها الغربية. فلو أن وطنه الجزائر قد حقق ذلك الاستقلال السياسي فسينضم إلى محور طنجة جاكارتا دون إحداث تغيير يذكر في عرى ذلك المحور. ولازم هذا النظر الجديد أو ربما من ضرورات مقتضياته هو إعادة صياغة سؤال الحضارة سواء في مستوى الدولة القطرية أو المحور الحضاري أو مستوى الدورة الحضارية التي تدور في فلكها الإنسانية جمعاء. لكن تظل مفردات التحليل الأولية هي هي وذلك يجعلنا نقول: إن العناصر الأولية الناتجة عن التحليل النهائي لسؤال الحضارة لا يتغير بتغير وحدة التحليل وهذا الكشف العلمي له حظ وافر من الثبات لكن لا بد لنا من تكييف سؤال الحضارة في إطار وحدة

التحليل وطالما أن الإنسان هو المفردة التي تحول التراب والوقت إلى حالة الفاعلية الحضارية فلا بد من توجيه القدر الأوفر من الاهتمام به لكن الإنسان كذلك هو ظاهرة بالغة التعقيد. والحال كذلك لا بد لنا من أعمال آلة التحليل فيه ورده إلى عناصره الأولية كما فعلنا من قبل في شأن فهم معادلة الحضارة. وهنا يصل التحليل إلى نهاياته المنطقية ليبدأ مستوى آخر من التركيب الخلاق نافذاً إلى جملة من العلاقات الجديدة التي يقتضيها سؤال الحضارة وصلته بالإنسان. فلئن كان من مفردات تحليل الإنسان فكره وذوقه وعمله فذلك يدفعنا لبناء شبكة من العلاقات بين هذه المفردات التي تجمع بين طرائق في إصلاح الفكر والحس الجمالي والحس الأخلاقي والمنطق الذي يحكمهما ثم المنطق العملي. وفوق هذا وذاك لا بد لنا من أن ندرك أن هذه المفردات وشبكة العلاقات التي تحكمها لا تعمل في فراغ حضاري وذلك يقتضي وعياً تاريخياً بالأنا الحضارية التي نتوخى دفعها باتجاه الفاعلية و وعياً معاصراً لآخر المهيمن على المسألة الحضارية بسبب ريادته وفاعليته التي قد تنتج فينا حالة مرضية هي حالة القابلية للاستعمار ما لم نحسن التعامل مع ما نحن فيه تركة تاريخية هي أسباب التخلف وحالة راهنة من فقدان الفاعلية والتي تجعلنا أسارى للتكديس وعدم القدرة على البناء أسارى لعالم الأشياء و لا حيلة لنا في الربط بين عالم الأفكار و عالم الأشياء¹².

7. سؤال الحضارة بين الاختزال والشمول

لا يمتري أحد في أن مالك بن نبي سعى لتأسيس مقالة شاملة لكل أجزاء النظر الإنساني في شأن القول في مشكلة الحضارة ولم يكن يؤسس لمقالة اختزالية لفهم مسألة النهضة بل أنه قد تفرد بقول جديد في خصوص مسألة النهضة في مستوى فهمها كظاهرة إنسانية عامة وتطبيق ذلك على الكسب الحضاري الإنساني. فلئن ابتكر العلامة ابن خلدون علم العمران فقد طوره مالك بن نبي ليسع القول في مستوى الحضارة الإنسانية وسنن تداولها بين البشر وذلك لا يعني أن ابن خلدون قد قصر همته على النظر في قيام و سقوط الدول دون الالتفات إلى المسألة الحضارية ولكنه كان يكتب تأريخاً علمياً للإنسانية بدت بواكيره في الحضارة الإسلامية على يد الأفاذ من مؤرخي الحضارة الإسلامية مثل الطبري (ت 310هـ) في كتابه تاريخ الرسل والملوك وتطورت

بصورة واسعة على يد رشيد الدين فضل الله الهمداني (ت. 718هـ) في كتابه جامع التواريخ ثم جاء ابن خلدون (ت. 808هـ) في مقدمته لتاريخه ديوان المبتدأ والخبر¹³، والتي أعاد فيها النظر في علم التاريخ برمته ليكمل ذلك التطور العلمي في التاريخ للإنسانية وليبتكر علما جديدا لينفذ إلى باطن الصناعة العلمية التاريخية ليبين لنا السنن التي تحكم حركة تحول العمران البشري من البداوة إلى الحضرة وارتباط ذلك بالملك وأعمار الدول وديناميات الملك وعصبياته. فلئن كانت العصبية هي المحرك التاريخي الأولي وأن غايتها هي الملك فقد اقتصر التحليل على أمر قيام الدول وسقوطها ولكن المنجز الحضاري في إطار علم العمران لم يسقط من حسابه تطور العلوم والصنائع وارتباط كل ذلك بالعمران الحضري. فقد يبدو أنه ليس من الدقة مساءلة ابن خلدون عن أمر خارج نطاق أفقه التاريخي.

8. فاعلية الأفكار وانعكاسها على منظومة الحضارة

يرى مالك بن نبي كما ذكرنا سابقاً أن عناصر أو مكونات الحضارة هي: (إنسان + تراب + وقت). لذلك فإن أول ما يجب أن نفكر فيه عندما نريد أن نكون حضارة هو التفكير في عناصرها المكونة لها. لأننا عندما نقوم بتحليل الحضارة بنويًا فإننا نجد أنها تتكون من تلك العناصر الثلاثة المذكورة آنفاً. غير أن أول وأهم عناصرها الأولية هو الإنسان، لأنه هو من جاء بالفكرة، ثم صنع المنتج¹⁴. ولهذا يرى بن نبي أن أزمة الحضارة التي تعيشها أمتنا تنقسم إلى ثلاث مشكلات أساسية وهي مشكلة الإنسان، ومشكلة التراب، ومشكلة الوقت. ولهذا حينما نحاول التخطيط لحضارة ما، فليس علينا أن نفكر في منتجاتها وإنما في عناصرها الثلاثة؛ الإنسان والتراب والوقت. فرجل الفطرة، والتراب، والوقت، ذلك هو الرصيد الذي تضعه العناية الإلهية بين أي مجتمع يريد النهوض¹⁵.

وحينما تحل المشاكل الثلاث حلاً علمياً، ببناء الإنسان المتكامل والاعتناء بالتراب (الإمكانات الطبيعية)، والزمن، لتتفاعل معاً ضمن ما توفره الفكرة الدينية المركبة للقيم الاجتماعية من شرارة روحية، فقد تم حل مشكلة الحضارة، التي هي الإطار الذي فيه تتم للفرد سعادته¹⁶. ويبقى الإنسان هو الشرط الأساس لكل حضارة، فهو محور الفاعلية في حركة الحضارة، وهو الذي يعطي

ويحدد القيمة الاجتماعية لمعادلة (الحضارة = إنسان + تراب + وقت)، لأن التراب والوقت - إذا اقتصر عليهما فحسب - لا يقومان بأي تحويل اجتماعي¹⁷. وحيث أن الإنسان هو محور الفاعلية في حركة الحضارة، فإن التفكير في بناء الحضارة يتم عبر التفكير في بناء الإنسان، وحل مشكلات الحضارة يكون عبر حل مشكلات الإنسان. أو كما يقول بن نبي نفسه: "فكل تفكير في مشكلة الإنسان بالنسبة إلى حظه في الحياة هو في أساسه تفكير في مشكلة الحضارة"¹⁸. ويؤثر الإنسان في حركة المجتمع بفكره، وبيده (عمله)، وبماله، ومن هنا فإننا بإزاء ثلاث مسائل متعلقة بالإنسان، هي الحاجة إلى العناية بفكر الإنسان (ثقافته)، والعناية بتوجيه عمله ليحقق الفاعلية القصوى، والعناية بماله ليدخل في استثمار اجتماعي منتج¹⁹.

والحديث عن الفكرة وعن عالم الأفكار هو حديث عن الثقافة أو الوسط الثقافي الذي يتشكل فيه وعي الإنسان وشخصيته. فالثقافة بالنسبة للإنسان تحتل المرتبة الرئيسية في بناء شخصيته، لأنها الرحم الذي تنمو فيه أفكاره وتطلعاته وتتحدد فيه قيمه وأهدافه. فالثقافة هي التي تحقق التوازن في داخل الإنسان وتعلمه كيف ينخرط في الجماعة ليؤدي دوره بشكل متكامل أي أن إصلاح الثقافة يعني إصلاح الفرد والمجتمع²⁰. وتؤهل الثقافة الإنسان لبناء الحضارة وهي "أن يتعلم الإنسان كيف يعيش في جماعة، ويدرك في الوقت ذاته الأهمية الرئيسية لشبكات العلاقات الاجتماعية، في تنمية الحياة الإنسانية، من أجل وظيفتها التاريخية"²¹.

ونخلص من تحليلنا السابق إلى أن العنصر الأساس في الحضارة والبناء الحضاري هو الإنسان، ولإحداث نهضة حضارية يجب الاهتمام بالإنسان. والاهتمام بالإنسان يكون من خلال الاهتمام بهذه الأبعاد الثلاثة: الفكر والمال والعمل، ولكن الحقيقة أن ذلك يتم من خلال فكرة توجيه هذه القوى الثلاثة لتنسجم ومن الواضح أن الأفكار هي التي تؤثر في القوتين الآخرين. ولهذا فالأفكار مفصلية في عملية التحضر؛ سواء في بناء الإنسان، أو في توجيه قواه، أو في صياغة مشاريع النهضة. ولهذا، فإن "غنى المجتمع لا يقاس بكمية ما يملك من أشياء، بل بمقدار ما فيه من أفكار. وقد يحدث أن تلم بالمجتمع ظروفٌ أليمة، كأن يحدث فيضان أو حرب، فتمحو منه (عالم الأشياء) محوًا كاملاً، فإذا حدث في الوقت ذاته أن فقد المجتمع السيطرة على (عالم الأفكار) كان الخراب

ماحقًا. أما إذا استطاع أن ينقذ أفكاره فإنه يكون قد أنقذ كل شيء؛ إذ إنه يستطيع أن يعيد بناء عالم الأشياء...²² وضرب لذلك أمثلة في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية.

وحتى نحقق النهضة الحضارية علينا أن نهتم بالإنسان وفعاليته في المجتمع، وذلك لأن "القضية ليس قضية أدوات ولا إمكانيات، بل في أنفسنا، حيث يتوجب علينا أولاً أن ندرس الجهاز الاجتماعي الأول هو الإنسان".²³ لأن المجتمع الذي يتمكن من بناء عالم ثقافي منسجم مع سنن الآفاق والأنفس والهداية، ويحسن استثمار إمكاناته البشرية والمادية على ضوء ذلك، يطرد نموه، وتتضاعف إنتاجيته الحضارية، ويمتلك في نهاية المطاف القدرة على الإشعاع والامتداد في التاريخ²⁴، ويستطيع القيام بإنجاز تركيب للحضارة. فمجتمعاتنا الإسلامية في كثير من الأحيان ليست فقيرة من حيث الأفكار، ولكن تفتقد إلى المنطق العملي، أي ربط الأفكار بالمجتمع والواقع؛ أي تحويل الأفكار إلى مشاريع عملية. ولهذا فإن مالك بن نبي يؤكد دائماً أن هناك فرق بين الانشغال بأصالة الأفكار وبين فعاليتها في الواقع. وعلينا ألا نكتفي بترديد الأفكار الأصلية، بل بتحويلها إلى قوة مغيرة في الواقع، تغيير واقع الناس وتحقيق أهدافهم حتى لا تتحول الأفكار إلى ثثرة وعلم كلام جديد. أو بعبارة بن نبي فإن "ميزانية التاريخ ليست رصيماً من الكلام، بل كتل من النشاط المادي، ومن الأفكار التي لها كثافة الواقع ووزنه"²⁵. ولهذا رأى أن هناك خلافاً في ثقافتنا الإسلامية المعاصرة، وهي أننا نقول لنقول، وليس لنعمل.

9. الجديد الذي قدمه مالك بن نبي في المسألة الحضارية

لقد تم التأكيد آنفاً أن المسألة الحضارية مسألة محورية في فكر مالك بن نبي، ولكن الجديد فيها أنها منظور كلي لتشخيص أمراض أمتنا وحضارتنا الإسلامية ولوصف العلاج لها؛ فهو منظور يوفر فهماً كلياً للحضارة دون اختزال لمشكلاتها الجزئية. فينظر إلى مشكلات الأمة على أنها كلها تنضوي تحت ما يسميه "مشكلة الحضارة"، باعتبار أن الحضارة هي الإطار الذي ينظم كل هذه الأجزاء؛ التي نسميها في مكان ما مشكلة سياسية، وفي مكان آخر مشكلة اقتصادية، وفي مكان ثالث مشكلة أخلاقية²⁶. وهو يرى أن العالم الإسلامي في بحثه عن صياغة بناء حضاري جديد،

عليه أن يبحث أولاً في أسباب الغياب الحضاري الذي دام مدة طويلة كان خلالها خارج التاريخ، كأن لم يكن له هدف.

ولهذا، فالعالم الإسلامي أضاع وقتاً طويلاً، وجهداً كبيراً، بسبب عدم التحليل المنهجي للمرض، الذي يتألم منه منذ قرون طويلة فذهب يتلمس الحلول الجزئية، ونظر إلى القضية في صورها التجزئية، فاختلفت الأطروحات؛ من الطرح السياسي إلى الطرح الاقتصادي إلى الطرح الأخلاقي وما إلى ذلك²⁷. ولهذا ينبغي البحث في جوهر الأزمة وحقيقة المرض، وعدم الاكتفاء بمعالجة الأعراض أو المظاهر الجزئية التي تطفو هنا وهناك في صورة أو أخرى. كما أن كل هذه الأعراض تحتاج إلى إطار من خلاله نرى كل الجوانب المتعلقة بالأزمة، ولا نغيب أو نهمّل أحدها، وهذا الإطار يكمن في إرجاع الأزمة إلى جوهرها؛ الذي هو مشكلة غياب حضارة المسلم، وغيابه عن صنع التاريخ، وهو إطار ينبغي أن ينظم كل الجهود الإصلاحية، لتحقيق النهضة المنشودة التي طال العمل على تحقيقها في العالم الإسلامي.

فالمرض كامن في نفس المسلم، وفي ثقافته الموروثة، كما هو كامن في سلوك المسلم وتصرفاته اليومية، وفي قلبه وعقله أيضاً. والأزمة تكمن في الأدران العالقة بالمسلم من تراث الانحطاط عبر القرون، أكثر ما هي بسبب خارجي وافد. فالأمر لا يتعلق بنقص في الوسائل حتى نستوردها ونكدسها، بل يتعلق بأزمة في الأفكار، وفي كيفية البحث عن حلول موضوعية لها²⁸. ولهذا يرفض مالك بن نبي النظرة السطحية للمشكلة أو تجزئتها، ويعتبر أن هذا يؤدي إلى استفحال التخلف، لأن الجهود تتجه في الحقيقة لمعالجة مظاهره وليس جوهره، ويكمن الجوهر في الإمساك بالمشكلة المركزية التي تنتظمه، وهي الارتقاء إلى مستوى أرحب في التحليل، من خلال النظر إلى الأزمة بنظرة شمولية. ولهذا يقول "إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها"²⁹. وهكذا فقد كانت كل جهوده وأعماله الفكرية تنصب على البحث عن حل مشكلة الحضارة في العالم الإسلامي، ومحاولة البحث عن مدخل منهجي مناسب لإعادة بناء حضارته من جديد.

10. تحليل مالك بن نبي لمشكلة التخلف

من المعلوم أن إحدى أبرز مظاهر التخلف هو عدم استعمال المناهج والوسائل التكنولوجية الحديثة في الإنتاج وهذا يتفق تماما مع نظرية مالك بن نبي في الحضارة حيث تدرج الوسائل التكنولوجية ضمن عنصر التراب في معادلة الحضارة. ويؤكد بن نبي أن المشكل يكمن في الانسان كفرد حيث أنه لم يكن قادرا على استعمال ما توفره الأرض من موارد وامكانيات وثروات ويعود ذلك إما إلى الجهل أو إلى عدم الفعالية الحضارية³⁰. ويرى بن نبي أن ضعف الأداء الاقتصادي لدى الدول المتخلفة مقارنة بالدول المتقدمة هو نتاج لعدة عوامل منها عدم الوعي بالشؤون الاقتصادية وقلة الخبرة والتجارب في هذا المجال حيث غلب على المسلمين النزوع النفسي نحو الجوانب الروحية والتفريط في الجوانب الاقتصادية لقرون عديدة حتى أصبحوا يعتقدون أن تحسين الأداء الاقتصادي يكمن في تقليد ما هو موجود في الغرب أو شراء واستهلاك تكنولوجيا مستوردة ودخيلة دون امتلاك القدرة على الاستفادة منها وتبنيها في الدول المتخلفة لتتماشى مع ظروف كل بلد³¹. ويضيف بن نبي أن أحد أهم أسباب التخلف هو الفقر حيث أن الدول الفقيرة عادة ما تكون عاجزة عن توفير الحد الأدنى من المستلزمات المادية للغالبية العظمى من أبناء شعبها. وعلى سبيل المثال فإن دول محور واشنطن-طوكيو قادرة على توفير الرعاية الصحية والتعليم ومواطن الشغل إلى أكثر من 90% من مواطنيها في حين توفر دول محور طنجة-جاكارتا 40% أو أقل لأبناء شعبها³².

أ. الخصائص الاجتماعية والسياسية للتخلف

يمكن تلخيص هذه الخصائص أساسا في النقص الفادح في رجال الأعمال والإداريين الأكفاء وأيضا في سيطرة القيم السلبية المعيقة للتنمية وكل هذا يندرج ضمن العنصر الأول في معادلة مالك بن نبي للحضارة وهو الانسان³³. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يرى مالك بن نبي أن موضوع الانفجار الديموغرافي له علاقة وطيدة بالتنمية حيث أن الزيادة الديموغرافية المهولة في الدولة المتخلفة تعود إلى عدة عناصر منها تحسن الرعاية الصحية، والتراجع الكبير في نسبة وفيات الأطفال، ومكافحة المجاعات، والهجرة الداخلية والنزوح من الأرياف إلى المدن الكبيرة وسوء توزيع

الكثافة السكانية. وهكذا يخلص بن نبي إلى أن الانفجار الديموغرافي في الدول المسلمة هو أحد عوامل الوهن في اقتصاديات الدول المتخلفة³⁴.

وفضلاً عما تقدم، يؤكد بن نبي أن ارتفاع نسبة الأمية وانتشارها على نطاق واسع في المجتمعات المتخلفة هي من الأسباب المؤثرة سلباً في التنمية. ويرى أن الأمية نوعان؛ نوع يتعلق بعدم امتلاك مهارة القراءة والكتابة وتندرج ضمن المسؤولية الفردية للإنسان ويجب رفعها بالتعليم على ألا يكون هذا التعليم بحشو عقل الإنسان بالمعلومات وإنما بتحفيز الجوانب النفسية لهذا الإنسان الأمي وتحويله إلى أداة للتغيير الاجتماعي. ويتعلق النوع الثاني من الأمية بأولئك المتعلمين الذين حازوا شهادات علمية وتحصلوا على وظائف ولكنهم جعلوا معارفهم خدمة لأغراضهم الشخصية وخاصة التحصيل المالي دون التفكير في استعمال معارفهم للصالح العام. ويرى بن نبي أن هذه الفئة من الأميين أخطر على المجتمع من فئة الأميين الذين لا يقرؤون ولا يكتبون فالأمية الثقافية أخطر عند بن نبي من أمية الحروف الأبجدية. ولهذا من المهم أن يعتني المسلمون أكثر بإصلاح التعليم والثقافة وليس بزيادة عدد المدارس لرفع الأمية حتى يصبح النظام التعليمي قادراً على إنتاج إنسان متعلم ومرتبطة بأهداف مجتمعه³⁵.

ب. أنواع التخلف

ب. 1. التخلف الفكري والثقافي

من مظاهر التخلف الفكري والثقافي ضعف وتدهور العلاقات بين أفراد المجتمع لأن عالم الأشخاص وعالم الأفكار وعالم الأشياء كلها تعمل بشكل متلازم غير منفصل، فما ينتجه مجال الأفكار يجسده مجال الأشياء ليحقق الأهداف التي يرسمها الأشخاص³⁶.

وفي عصر التخلف يؤدي ضعف العلاقات الاجتماعية إلى تشظي أو تجزئة الأفكار ومن أهم مظاهره عدم الدقة في التفكير، وقلة التفكير التطبيقي والفصل بين النظرية والتطبيق وبين القول والعمل، والجهل بأساليب التفكير والاجتهاد، والشعور بمركب النقص، والعزلة³⁷. ويتأني الجمود

من الانحطاط في الجوانب الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والفلسفية وهو من أهم نتائج التشظي المعرفي والفكري³⁸.

ويرى بن نبي أن المجتمعات المسلمة بدأت في مواجهة الأزمة الثقافية حينما تخلى المسلمون عن ممارسة الضغط الاجتماعي على المنحرفين والخارجين عن الاجتماع الاجتماعي وهذا ما يتعارض مع تعاليم الإسلام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنها حديث الرسول ﷺ "من رأى منكماً منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"³⁹.

ويشير بن نبي إلى إشكالية عبادة الأصنام والأوثان في عصر الانحطاط حيث يعود الناس إلى عبادة الأوثان عندما تغيب الأفكار وهكذا ينحصر اهتمام الناس في عالمي الأشخاص والأشياء وتصبح المجتمعات تدور في فلك عبادة الأشخاص والأشياء والجنوح إلى المبالغة في تقديسهم وتمجيدهم وهو مظهر من مظاهر الحياة الجاهلية قبل الإسلام ولكنها مازالت منتشرة انتشاراً واسعاً في المجتمعات الإسلامية المعاصرة⁴⁰. فضلاً عن هذا يعتبر التقليد الأعمى وعدم الشعور وتحمل المسؤولية وأيضاً الرومنسية والشاعرية من أبرز مظاهر التخلف الفكري والاجتماعي⁴¹.

ب. 2. التخلف الاقتصادي

يرى بن نبي أن التخلف الاقتصادي ليس عدم امتلاك الإمكانيات المادية والتجهيزات في المجال الاقتصادي فحسب، وإنما الأهم من ذلك هو أنه يدل على الحالة الاجتماعية للأفراد ما قبل الحضارة الذين لا تتجاوز مشاكلهم واهتماماتهم حدود الأشياء⁴². ويرى أن من ضمن مؤشرات التخلف الاقتصادي:

- مستوى الدخل ومستوى استهلاك الطاقة الفردي في السنة: يوضح بن نبي الفروق الكبيرة بين ما يوفره محور واشنطن-طوكيو من رفاه وخدمات وأمن اجتماعي، وضحالة ما يوفره محور دول الفقر؛ محور طنجة - جاكارتا، والذي لا يرقى حتى لتأمين الاحتياجات الأساسية لشعوبهم⁴³.

- الاعتماد الاقتصادي على القوى الخارجية: يؤكد بن نبي على ضرورة الاعتماد على الثروات والموارد الوطنية المحلية والاستثمار الاجتماعي في الانسان بدلا من الاستثمار المادي أو في كل ما يتعلق بالجوانب المالية⁴⁴.

وحيثما يستقرئ بن نبي أوضاع التخلف في العالم الإسلامي يؤكد على أنها مرت بمرحلتين:

المرحلة الأولى: ويعتمد فيها المسلمون على تقليد الآخر أكثر مما يمكن في تلبية احتياجاتهم ولم يهتموا باستنباط أو ابتكار الوسائل التي تمكنهم من تلبية هذه الاحتياجات.

المرحلة الثانية: بعد الاستقلال بدأ المسلمون في تقليد أسلوب حياة الآخرين واستيراد منتجاتهم على نطاق واسع حتى وإن أدى ذلك إلى تعريض السيادة الوطنية إلى الخطر. ويبقى السؤال المهم لدى بن نبي قائما وهو كيف نرسخ في المجتمع المسلم ثقافة تجعل الأفراد قادرين على استعمال قدراتهم العقلية والبدنية بشكل عام حتى يتمكنوا من النجاح في أي مخطط اقتصادي⁴⁵.

ويقدم بن نبي تحليلا مهما في فهم مشكلة التخلف وهو الأساس الثقافي للاقتصاد العالمي. وهنا يؤكد على أهمية مفهومي الإرادة والقدرة أو الإمكانيات. فالاقتصاد عادة ما يقوم على الإرادة والإمكانيات ويذكر بن نبي تجربتين في التاريخ البشري كيف يمكن للإرادة وحدها أن تنشئ اقتصادا. وهتان تجربتان هما تجربة المسلمين في العصر الإسلامي الأول حيث كانت لهم الإرادة ولم يكن لهم من الإمكانيات شيء تقريبا ولكنهم صنعوا قوة، وتجربة ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية حيث كان البلد شبه مدمر تماما من جميع النواحي ولكن الألمان انطلقوا في إعمار بلادهم وبناء اقتصاد قوي بإرادة قوية وقد كانت إمكانياتها لا شيء تقريبا بعد الهزيمة في الحرب العالمية الثانية. ويرى بن نبي أن الانسان هو القيمة الاقتصادية الأولى عندما تكون إرادته كشراة منبثقة من الإرادة الحضارية. ويضيف أنه حينما كانت "الإرادة الحضارية" قوية لدى اليابانيين فقد تحولت اليابان إلى دولة صناعية كبرى، وكذلك الأمر بالنسبة للصين حينما ركزت على "الاستثمار الاجتماعي" أي الاعتماد على الذات في تصميم خطط التنمية وهو الوجه الأمثل لتشريك الانسان في التنمية المعاصرة نجحت في بناء دولة عظيمة واقتصاد قوي. ولهذا فإن أفضل طريق إلى تنمية اقتصادية

ناجحة في العالم الإسلامي هو الاستعمال السليم للإنسان والتراب والوقت وما يتطلب من إرادة حضارية واستثمار اجتماعي⁴⁶.

ب. 3. التخلف السياسي

يرى مالك بن نبي أن العمل في السياسة هو عمل في صميم الثقافة في نهاية الأمر لأن الإنسان والمجتمع مدبرون بشكل ما للمساهمة في البناء أو إعادة البناء وتهيئة الأساس اللازم للوحدة بين الفرد والدولة. ولم يهتم بن نبي كثيرا بشكل الحكم سواء كان خلافة أم مملكة أم جمهورية بقدر ما كان مهتما بالقيم التي يقوم عليها الحكم وخاصة الأخلاق لأن الحكم بدون أخلاق يؤدي إلى الهلاك والديمقراطية شرط أساسي لاتساق جهود الدولة لتحفيز الموارد⁴⁷. ويؤكد بن نبي على أهمية التخلص من جميع أشكال الاستعمار لأنه هو السبب الرئيس في تخلف العالم الإسلامي وضعفه. ويوضح أن لمصطلح "الاستعمار" وجهان: وجه يتعلق بدور الاستعمار السلبي للغاية في الاستنقاص من قيمة الناس وسحق قدراتهم والانحراف بـ "الإنسان" - بوصفه عنصرا في المعادلة - عن دوره المنوط به، والوجه الثاني هو خلق القابلية للاستعمار لدى أنفس الناس وجعلهم يستسلمون للواقع فيرضون به ولا يقاومونه ويسيطر عليهم الخمول ويستمر هذا السلوك وتتواصل هذه الروح حتى بعد انتهاء مرحلة الاستعمار المباشر (الاحتلال)⁴⁸. ولكن ينبه بن نبي إلى حقيقة يجب أن نقر بها هو أن الاستعمار الحديث هو الذي أيقظ العالم الإسلامي من سبات عمره قرون من الزمن واستفزه للنظر فيما يشوبه من مشاكل وخاصة مشكلة التخلف وشروط النهوض الحضاري⁴⁹.

11. العلاقة مع الغرب في فكر مالك بن نبي

يرى مالك بن نبي أن الوعي الإسلامي في الأزمنة الحديثة يقع في اضطراب كلما تعلق الأمر بإشكالية العلاقة بالغرب وهذا ما أدى إلى اضطراب الرؤى والتصورات ذات العلاقة⁵⁰. ولهذا فإنه يرى أننا بحاجة إلى تحديد دقيق للعلاقة بالغرب، ينقلنا من علاقة التبعية إلى علاقة التعلم والندية لأنه لا يخفى على المتابع الحصيف أن علاقة معظم مثقفينا بالغرب هي علاقة انبهار وتقليد وهذا

وفقا للمقولة المشهورة للعلامة ابن خلدون أن "المغلوب مولع أبدا باتباع الغالب"، أي أن هذه العلاقة تنحو أن تكون علاقة زبون يسارع في استهلاك منتجات الغرب المادية والفكرية وتكديسها، بينما كان ينبغي أن تكون العلاقة قائمة على التعلم من التجربة الحضارية الغربية بشكل يفيدنا في بناء حضارتنا الإسلامية من جديد وتوفير شروط النهضة الحضارية، حتى نقع في سلوك التكديس المادي والثقافي والتقليد ولكن نقوم باقتباس واعٍ وفق منظورنا الحضاري⁵¹.

لا ريب أن الحضارة الغربية اليوم أشعت على العالم بمنجزاتها كما أشعت وبفوضاها ومشكلاتها أيضا، وخاصة أننا في عصر العولمة حيث صار الضمير والوعي يتشكلان في إطار عالمي، وأن زمن الوحدات الحضارية المعزولة قد ولى وانتهى ونحن اليوم في مرحلة عالمية بمختلف المقاييس، والانعزال فيها لا يزيدنا قوة، ولكن الانفتاح يجعلنا نتعامل في إطار أرحب، دون أن يكون الغرب هو النموذج الوحيد المحتذى، ولا المتفرد بصناعة العلم والضمير. كما أن الحضارة الغربية المعاصرة رفعت من مقدرة الإنسان- بفعل العامل التكنولوجي- وحققت كثيرا من الشروط الاجتماعية للتحضر، ولكنها أخفقت من حيث الضمير لأنه لا يخفى على الناظر اللبيب أن ضميرها متأخر شيئا ما عن علومها. ولهذا علينا أن نرتقي إلى المستوى الاجتماعي العلمي للحضارة المعاصرة، وعلينا أن نرفعها إلى مستوى الضمير الإسلامي الذي لا يزال إنسانيا بفعل سلامة مصدر التوجيه (الإسلام) لدى المسلمين. ولهذا كان بن نبي شديد النقد لكلا التيارين الكبيرين المشكلين للفكر الإسلامي الحديث؛ التيار الإصلاحية الذي يرفع شعار "الأصالة"، والتيار الحداثي الذي يرفع شعار "التنوير"؛ لأن التيار الأول تتملكه نزعة إخلاص للموروث دون نظرية واضحة في النهضة، والتيار الثاني يعيش حالة تقمص للغرب بطريقة جعلته يفقد أصالته وفي نفس الوقت لا يحصل على فعالية الغرب لأن منظوره للنهضة تلفيقي يقوم على التكديس بدل البناء، ويتعامل مع الغرب بذهنية الزبون لا بذهنية التفاعل الإيجابي الذي يحكمه مبدأ التعلم والاستفادة من التجارب البشرية مع الحفاظ على الهوية الحضارية.

12. نظرة مالك بن نبي للتغيير الاجتماعي

لم يغفل مالك بن نبي في تحليله لظاهرة التخلف في العالم الإسلامي وشروط النهضة الأبعاد الاجتماعية، فإضافة إلى الإشارة للعوامل الاقتصادية فقد أكد بن نبي على أن الإنسان المسلم لم يتعلم أو نسي كيفية استعمال بعدي التراب والوقت بشكل فعال. كما لاحظ أنه بالقدر الذي يزيد الفرد في فعالية استعمال بعصري التراب والوقت بالقدر الذي يتدرج نحو التغلب على التخلف. ويرى بن نبي أن الفاعلية تتحسن وتزداد عبر التغيير الاجتماعي والذي يبدأ بتخلص الإنسان من صفته كفرد ليصبح شخصا باعتبار ارتباطه بمجتمعه وأكد أن هذا لا يتحقق إلا بتخلص الفرد من العناصر الأصلية في تكوينه كنوع بشري يتجه نحو امتلاك النزعات الاجتماعية التي تشده إلى المجتمع. ويرى بن نبي أن الذي يميز مجموعة من الأفراد عن أن يكونوا مجموعة اجتماعية هو عملية تكون العلاقات الاجتماعية عبر تفاعل الأشخاص داخل المجتمع فيما هو مشترك بينهم في أي حقل من حقول الحياة الاجتماعية، ويؤكد أن بنية المجتمع تتأثر بتأثر هذه العلاقات الاجتماعية سلبا وإيجابا متانة وضعفا⁵².

ويرى بن نبي أن التربية عاملا مهما في التغيير الاجتماعي منذ نشأة المجتمعات. وبالنظر في تاريخ تكون المجتمع الإسلامي، يعتبر بن نبي أن القرآن هو الذي جعل المسلمين بين حدي الوعيد والوعد حيث أن الوعيد يلعب دور الردع والتخويف ليباعد الشخص عن كل ما يجذبه إلى الوراء وأما الوعد فهو القوة التي تحرك الطاقة الكامنة في الشخص لبذل أقصى ما عنده من جهد للوصول إلى مبتغاه. وبين هذين الحدين أو القوتين تكمن القوة الروحية⁵³.

وخلاصة قوله أن المجتمع من الناحية التاريخية ما هو إلا تسجيل لمجموعة التغييرات الاجتماعية التي يتعرض لها الأفراد، وتتحكم في صناعة التاريخ عوامل اجتماعية ثلاثة وهي: تأثير مجال الأشخاص، وتأثير مجال الأفكار، وتأثير مجال الأشياء. وهكذا يتضح أن مالك بن نبي يؤسس إلى تحليل جديد للتغيير الاجتماعي ويقدم أطروحة مخالفة للنظرية الماركسية في التغيير الاجتماعي والتي تقوم أساسا على تأثيرات العوامل الاقتصادية والمادية البحتة. ثم يؤكد أن التغيير الاجتماعي إما أن يؤدي إلى تقدم المجتمع وتعبده وإما إلى التخلف⁵⁴.

لقد اكتفى بن نبي بتقديم نمط واحد من أنماط التغيير الاجتماعي، وهو التغيير النفسي الطوعي. ويبدو أنه لم يرغب في الغوص في أنماط التغيير الاجتماعي المتنوعة لأنها ربما كانت معلومة لديه وأراد فقط التأكيد على نمط لم يحظ بالتحليل والتوضيح على أهميته حيث يؤكد على الجوانب النفسية في كل عملية تغيير اجتماعي والتي تتمثل أساساً في التأمّلات التي تؤدي إلى التغيير الذاتي للسلوك الاجتماعي. وذلك لأن كل شيء يغير النفس يمكن أن يغير المجتمع وهنا يستدل مالك بن نبي بقوله تعالى " إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ " (الرعد:11) ولاحظ بن نبي أن أكبر وأعظم تغيير حدث في التاريخ هو ذلك الذي أحدثه ظهور الأفكار الدينية لأن الفكرة الدينية قادرة على إحداث تغيير في سلوك الأفراد ومظهرهم. ولهذا أعطى بن نبي أهمية كبرى للتربية الاجتماعية باعتبارها تعني بتغيير الجوانب والقوى المادية أو البدنية والغريزية في الفرد لتجعلها سلوكيات اجتماعية مقبولة وهذا هو موضوع التربية الاجتماعية. ويؤكد بن نبي أن التربية الاجتماعية فيها عنصر الدين وهو المسؤول عن تشكيل نظام التأمل عند الفرد كما يشكل شبكة العلاقات الاجتماعية وهذا بدوره يسهل أداء المهام والأنشطة الاجتماعية المشتركة بين الأشخاص في المجتمع⁵⁵.

13. الخاتمة:

إن أحد وجوه جعل الخاتمة متصلة بالمعنى العام للورقة والسؤال الرئيس " لماذا مالك بن نبي اليوم؟" يمكن أن يكون على غرار البدايات الشعرية البديعة التي كان مالك بن نبي يفتتح بها بعض فصول كتبه. وعليه فإن الناظر المتفحص في واقع المسلمين اليوم يمكن أن يخلص إلى أن مالك بن نبي كان "شاهد القرن"؛ غير أن القرآن لم يصبر بعد "ظاهرة" علمية وحضارية نستمد منه التصورات والمفاهيم والمناهج والحلول كما كان يأمل مالك بن نبي. وأما "وجهة العالم الاسلامي" فلم تحدد بعد بدقة، وما زلنا نتراوح "بين الرشاد والتهيه"، بالرغم من أننا "في مهبط المعركة". ولأن "الصراع الفكري" ألهانا عن "القضايا الكبرى"، وسعى لفلان نتجاوز "مشكلة الثقافة" لنقوم بالإعداد من أجل "ميلاد مجتمع" يحقق "شروط النهضة"، وصرنا نعيش "مشكلة الأفكار" بقوة، بفعل هيمنة "أعمال المستشرقين" فكراً ومنهجاً، وهيمنة مُقلديهم من أبناء أمتنا؛ فتاه "المسلم في عالم الاقتصاد"

بعد أن تجاوزته الدول "الافريقية الآسيوية" في الفكرة وفي التنفيذ، فبقينا في محيط "تأملات" نظرية، ولم ننتبه بعد لمسؤوليتنا وهي "دور المسلم ورسالته" في تحقيق النهضة ومشاركة الإنسانية تحضرها. وصار كثير من أبناء أمتنا ينفذون أهداف "المسألة اليهودية"، التي أبعدت مشروع "الكومنولث الإسلامي"، واندفع بعض منا يدمر بغداد ودمشق و"مجالس دمشق"، مما جعلنا نتطلع إلى وعي حضاري جديد يخرجنا من "العفن" "من أجل التغيير" والخروج من التخلف، وحل مشكلتنا الحضارية.

غير أننا في نظرنا يمكن أن تكون النظرة أكثر تفاعلاً وأصالة وفعالية إن هي دفعت نحو حوار خلاق مع مقولات مالك بن نبي وكيف نفعلها في واقعنا المعاصر إضافة إلى فتح أبواب جديدة لمزيد من النظر في مشروع مالك بن نبي الفكري والنهوض الحضاري الذي نطمح إليه ومن ثم التأكيد على أهمية استمرار الحوار العلمي المتجدد على غرار محاولة هذه المقالة الإجابة عن السؤال المطروح.

يبدو أنه بعد حوالي نصف قرن من وفاة مالك بن نبي عليه رحمة الله، ما زالت الإشكالات التي طرحها هي جوهر ما يُطرح من إشكالات في هذا العصر، وأن فكره مازال قادراً على العطاء، بل لم يبدأ العطاء الفعلي بعد. فلا يخفى على عاقل أننا مازلنا نعاني من مشكلات التخلف والتنمية، ولا نملك منظوراً مقترحاً على حلها مثل المنظور الحضاري الذي قدمه مالك بن نبي لإحداث التغيير الاجتماعي المنشود. وما زلنا نعاني من مشكلة أفكار عويصة تحتاج إلى منظور مالك بن نبي في فهمها وتفكيك ألغامها وتقديم الحلول لها. كما أننا نعاني من تهميش الإنسان، وتغليب التكديس المادي في عملية التنمية؛ وهي إشكالية عاجلها بن نبي بوضوح، ولم نجرب منظوره في حلها بعد. وفضلاً عن هذا، مازلنا نعاني استبعاداً للدين من صياغة الرؤية والقيم والمناهج والمفاهيم؛ ولم نستثمر جهد مالك بن نبي في هذا السياق حيث نظر إلى الدين باعتباره الوسط الذي تتكامل فيه عناصر الحضارة، ويتشكل فيه البناء الحضاري؛ بما يوفره الدين من أفق نظري، وزاد روحي، وخميرة أخلاقية تعجن فيها لبنات الحضارة؛ وبما يضمّنه الدين من أفق ومثل أعلى؛ يتجاوز تضييقات الماديين، واختزالات الروحانيين، ومتاهات اللاهوتيين.

ولقد قدم مالك بن نبي نظريته في الثقافة؛ التي تعيد للمسلم وحدته في الفكر والذوق والفعل والسلوك، وتُخرجه من شتاته وتناقضات المدارس الجزئية والنظرات الاختزالية والجمود الذي عرفه المسلم طيلة قرون؛ ونظرية الثقافة هذه لم تدرس ولم تطبق بعد. كما أن بن نبي طرح طريقاً ثالثاً للعلاقة بالغرب؛ ليس طريق المقاطعة، ولا طريق الذوبان في الحضارة الغربية، وإنما طريقاً يضمن علاقة سليمة مع هذه الحضارة التي تشع على العالم بمنجزاتها المادية وقيمها الحضارية، فنستفيد منها ونعمل على الخروج من طوقها، بل نعمل على تطعيمها بالعناصر الإسلامية، في مستوى التصور والقيم والبعد الروحي بشكل يحفظ على الإنسانية إنسانيتها ويعيد للإنسان مكانته التي يستحقها ضمن معادلة النهوض الحضاري والاستثمار الاجتماعي.

قائمة المصادر والمراجع

1. أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً، بيروت: دار النفائس، ط2، 1986.
2. الطيب، برغوث، موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، الجزائر: دار الينابيع، 1992.
3. بدران، بن لحسن، حمودة بن الساعي ... أو النخبة المهدورة، جريدة الحوار، 2015.
<https://www.elhiwardz.com/eatured/4093/>
4. زكي، الميلاذ، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، بيروت: دار الصفوة، ط1، 1992.
5. سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1، 1993.
6. عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبد الله الدرويش، دمشق: دار يعرب، ط1، 2004.
7. عبد السلام الجفائري، مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي، طرابلس: الدار العربية للكتاب، 1984.

8. مالك بن نبي، فكرة الأفريقية الآسيوية، دمشق: دار الفكر، 1956.
9. مالك بن نبي، فكرة كومنويلث إسلامي، دمشق: دار الفكر، 1960.
10. مالك بن نبي، تأملات في المجتمع العربي، دمشق: دار الفكر، 1961.
11. مالك بن نبي، مذكرات شاهد على القرن، دمشق: دار الفكر، 1965.
12. مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، دمشق: دار الفكر، 1978.
13. مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، دمشق: دار الفكر، ط1، 1978.
14. مالك بن نبي، في مهبط المعركة، دمشق: دار الفكر، 1981.
15. مالك بن نبي، تأملات..، دمشق: دار الفكر، 1986.
16. مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، ط3، 1986.
17. مالك بن نبي، مشكلة الأفكار، دمشق: دار الفكر، ط1، 1988.
18. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دمشق: دار الفكر، ط4، 1988.
19. مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، 2000.
20. مالك بن نبي، القضايا الكبرى..، دمشق: دار الفكر، 2002.
21. مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دمشق: دار الفكر، 2002.
22. مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، 2006.
23. بن نبي، حديث في البناء الجديد، د. ت، ص 101.

الهوامش:

- ¹ عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبد الله الدرويش، دمشق: دار يعرب، ط1، 2004، ج1/ ص336.
- ² مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، 2006، ص19.
- ³ بدران، بن لحسن، حمودة بن الساعي ... أو النخبة المهدورة، جريدة الحوار، 2015.
<https://www.elhiwardz.com/eatured/4093/>
- ⁴ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، ط3، 1986، ص5.
- ⁵ مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، دمشق: دار الفكر، ط1، 1978، ص37؛ بن نبي، شروط النهضة، 2006، ص43.
- ⁶ عبد السلام الجفاري، مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي، طرابلس: الدار العربية للكتاب، 1984، ص63-64.
- ⁷ بن نبي، ميلاد مجتمع، 1986، ص5.
- ⁸ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دمشق: دار الفكر، ط4، 1988، ص40.
- ⁹ بن نبي، شروط النهضة، ص52، 119؛ بن نبي، مالك بن نبي، القضايا الكبرى..، دمشق: دار الفكر، 2002، ص7.
- ¹⁰ زكي، الميلاد، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، بيروت: دار الصفوة، ط1، 1992، ص74.
- ¹¹ مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، 2000، وبخاصة في الفصل الول من الكتاب، وفي الفصل الأخير.
- ¹² بن نبي، شروط النهضة، 2006، فصل من التكديس إلى البناء، ص40-46.
- ¹³ ابن خلدون، 2004، في الفصل الذي عالج فيه ابن خلدون أنواع الكتابة التاريخية وكيف غفل المؤرخون عن باطن التاريخ.
- ¹⁴ مالك بن نبي، تأملات..، دمشق: دار الفكر، 1986، ص109.
- ¹⁵ بن نبي، بين الرشاد والتهيه، ص60.
- ¹⁶ مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، د. ت، ص101.
- ¹⁷ سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1، 1993، ص81.
- ¹⁸ بن نبي، شروط النهضة، ص78؛ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار، دمشق: دار الفكر، ط1، 1988، ص44.
- ¹⁹ بن نبي، شروط النهضة، 2006، ص77.
- ²⁰ أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً، بيروت: دار النفائس، ط2، 1986، ص215.
- ²¹ بن نبي، ميلاد مجتمع، ص94.
- ²² المصدر نفسه، ص37.
- ²³ بن نبي، تأملات، ص25.
- ²⁴ الطيب، برغوث، موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، الجزائر: دار الينابيع، 1992، ص12.
- ²⁵ بن نبي، مشكلة الثقافة، ص100.
- ²⁶ بن نبي، شروط النهضة، ص45 وما بعدها.

- 27 بن نبي، شروط النهضة، ص 41؛ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دمشق: دار الفكر، 2002، ص 53-54.
- 28 مالك بن نبي، مشكلة الأفكار، دمشق: دار الفكر، ط1، 1988، ص 70.
- 29 بن نبي، شروط النهضة، ص 19؛ بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 100.
- 30 بن نبي، شروط النهضة، ص 44.
- 31 مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، دمشق: دار الفكر، 1978، ص 7.
- 32 المصدر نفسه، ص 95.
- 33 بن نبي، شروط النهضة، ص 45.
- 34 بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ص 28.
- 35 بن نبي، شروط النهضة، ص 118؛ مالك بن نبي، مذكرات شاهد على القرن، دمشق: دار الفكر، 1965، ص 284.
- 36 بن نبي، ميلاد مجتمع، ص 23.
- 37 مالك بن نبي، في مهب المعركة، دمشق: دار الفكر، 1981، ص 175.
- 38 مالك بن نبي، فكرة كومنويلث إسلامي، دمشق: دار الفكر، 1960، ص 85.
- 39 بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 91.
- 40 بن نبي، شروط النهضة، ص 158.
- 41 مالك بن نبي، فكرة الأفريقية الآسيوية، دمشق: دار الفكر، 1956، ص 78؛ مالك بن نبي، تأملات في المجتمع العربي، دمشق: دار الفكر، 1961، ص 166.
- 42 بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ص 39؛ بن نبي، تأملات، ص 48، 81.
- 43 بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ص 52.
- 44 المصدر نفسه، ص 28-33.
- 45 بن نبي، فكرة الأفريقية الآسيوية، ص 149-150.
- 46 بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ص 66-78.
- 47 مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دمشق: دار الفكر، ط1، 1978، ص 69-75.
- 48 بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 82-83.
- 49 بن نبي، شروط النهضة، ص 149.
- 50 بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 122-123.
- 51 المصدر نفسه، ص 25 وما بعدها.
- 52 بن نبي، ميلاد مجتمع، ص 12-28.
- 53 بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ص 71.
- 54 بن نبي، ميلاد مجتمع، ص 25.
- 55 المصدر نفسه ص 74-75.

